

الخطاب الاستعرابي والمغالطات الثلاث: العرق الأسمى والعلم الأرقى والمدنيّة الحقّ

The Arabist Discourse and the three Fallacies:
The Super race, the Super science, and the True Civilization.

د. نجاة الطاهر قرفال

جامعة قابس (المعهد العالي للغات) – تونس

guerfeell@hotmail.fr

تاريخ القبول: 2022/09/05

تاريخ الإرسال: 2022/08/19

ملخص:

قام الخطاب الاستعرابي، الخادم للاحتلال والمشرّع له، على جملة هائلة من المغالطات تدلّ عليها خصائصه وخلفياته. ولئن كان المستعرب، وهو المشتغل في حقل معرفي مادّته العربيّة لغة وأدبا وحضارة، يخوض في مسائل بحثيّة بيّنة، فإنّ البعض يحرص على أن يظلّ متخفياً وراء شعارات براقة مثل العلميّة والموضوعيّة. ومن أمثلة هؤلاء أستاذ الفلسفة في الصربون ليون برنشفيك (Bunschvicg, Léon) (1869-1944)، الذي يصبّ خطابه كلّ في مسألة التنازع بين الشرق والغرب، ومرجعته في ذلك فيلسوف القرن السابع عشر لابنيز (Leipniz) صاحب فكرة تقسيم العالم بين دول أوروبا. تستهدف هذه الورقة الوقوف على جملة من المغالطات الفكرية الحضارية التي يتلبّس بها الخطاب الاستعرابي خدمة للمشروع الكولونياليّ وتبيّن خطرها على الفكر العربيّ والإسلامي، والمغاربيّ بصفة خاصّة.

الكلمات المفتاحية: مغالطات، استعراب، كولونياليّة، ليون برنشفيك.

Abstract:

The Arabist discourse, the servant and legislator of the occupation was based on a huge number of fallacies indicated by its characteristics and backgrounds. And if the Arabist, who is working in a field of knowledge whose material is Arabic, language, literature and civilization, engages in clear research issues, some are keen to remain hidden behind bright slogans such as scientific and objectivity. An example of these is the professor of philosophy in Serbia,

Brunschvicg, Léon (1869-1944), whose entire discourse focuses on the issue of conflict between East and West. And his reference in this is the seventeenth century philosopher Leibniz, who had the idea of dividing the world between the countries of Europe. This paper aims to identify a number of civilized intellectual fallacies that cloak the Arabist discourse in the service of the colonial project, and to show its danger on Arab and Islamic thought, and the Maghreb in particular.

keywords: fallacies, arabization, colonialism, Léon Brunschvicg.

مقدّمة:

نميّز بين نوعين من الخطاب؛ الخطاب المباشر الذي تدلّ بنيته على دوافعه وغاياته وغير المباشر الذي يعمد فيه صاحبه إلى المراوغة والتعمية. فيستحيل جملة من المغالطات التي لا تحلّ شفرتها إلّا متى كان المتلقّي ذا عقل حصيف وفكر نافذ ورؤية ثاقبة. ولا اختلاف في وجوب تملكه لقضيّة ينافح عنها. فمن لا قضيّة له وقع في شرنقة الخطاب الدائر كلامه بعضه على بعض. مثل هذا كان شأن الخطاب الاستعرايّي، الخطاب الخادم للاحتلال والمشرّع له، المبنيّ على جملة هائلة من المغالطات التي لا يخطئها من أدام النظر فيه وتكشّف خصائصه وسبر خلفيّاته. ولئن كان المستعرب، وهو المشتغل في حقل معرفيّ مادّته العربيّة لغة وأدبا وحضارة، يخوض في مسائل بحثيّة بيّنة إمّا تحقيقا ونشرا أو شرحا وتعليقا أو ترجمة وفهرسة، فإنّ البعض يحرص على أن يظلّ متحقّيا وراء شعارات برّاقة مثل العلميّة والموضوعيّة. ومن أمثلة هؤلاء أستاذ الفلسفة في الصربون ليون برنشفيك⁽¹⁾ (Brunschvicg, Léon) (1869-1944)، الذي لا يتوجّه مباشرة إلى العربيّة لغة وحضارة وإن كان خطابه كلّه يصبّ في مسألة التنازع بين الشرق والغرب. وقد كان مدار درسه حول الفكر الأوروبي والعقليّة الأوروبيّة ومفهوم الرجل الغربيّ. وكان رافده في ذلك فيلسوف القرن السابع عشر لايبنيّز (Leibniz) صاحب فكرة تقسيم العالم بين دول أوروبا.

تستهدف هذه الورقة الوقوف على جملة من المغالطات الفكرية الحضارية التي يتلبّس بها الخطاب الاستعرايّي خدمة للمشروع الكولونياليّ وتبيّن خطورها على الفكر العربيّ والإسلاميّ، والمغاربيّ بصفة خاصّة من جهة السيطرة عليه وتكبيله وتفريغه من هويّته وضخّه بعقد النقص المتنوّعة، ليكون دمية في يده يحركها متى شاء كما شاء.

تقوم خطة البحث على ثلاثة أقسام: المغالطة الأولى: العرق الأسمى، ثم المغالطة الثانية: العلم الأرقى، ثم المغالطة الثالثة: المدنية الحق. هذا بالإضافة إلى مقدمة تُبين عن أهمية الموضوع وأهدافه المرجوة منه والخطة الموظفة فيه، وخاتمة مبنية على ثلاثة عناصر: خلاصات واستنتاجات وتوصيات.

وأما إشكالية البحث فنصوغها كما يلي: إلى أي حد يمكن أن تكون هذه المغالطات -بعد عرضها- أحد منطلقات تفكيك الخطاب الكولونياليّ والحدّ من سلطته؟

إشارات ثلاث لا بدّ منها هنا. مدار الأولى على ماهية المغالطات التي تعني في التعريف التقليديّ: "تلك الأنماط من الحجج الباطلة التي تتخذ مظهر "الحجج الصحيحة" ولعل الصواب أن نقول إنّها أنماط شائعة من الحجج الباطلة التي يمكن كشفها..."⁽²⁾. أمّا الإشارة الثانية فتتعلّق بطبيعة العلاقة بين هذه المغالطات الآخذ بعضها برقاب بعض. فهي متداخلة متواشجة مؤثّر كلّ منها في الآخر متأثر به، هذا أولاً. وتتعلّق ثانياً بالترتيب المعتمد في عرضها: بدءاً بالعرق، وصولاً إلى المدنية، مروراً بالعلم. ولئن كانت المدنية نتاجاً فإنّ العرق منتج والعلم آليته في ذلك. وأمّا الإشارة الثالثة فتتمثّل في التعريف بصاحب المدونة المعتمدة في البحث. وهو تعريف شديد الاختزال⁽³⁾. فما يعيننا من ليون برنشفيك هو كونه كان أستاذ الفلسفة في الصربون، وأنّ الاهتمام في أهمّ محاضراته انعقد حول الفكر الأوروبي والعقليّة الأوروبيّة ومفهوم الرجل الغربيّ. وقد نشرها بين دفتي كتاب وسمه بـ الفكر الأوروبي⁽⁴⁾، وأنّه كان متأثراً بفيلسوف القرن السابع عشر لايبنيّز.

المغالطة الأولى: العرق الأسمى

حين تهيمن العنصريّة على العلم وتوظّفه لصالحها، تُلغى كلّ الحقائق لتبرز حقيقة واحدة ينافح من أجلها أرباب السلطة والتسلّط الذين يرون ذواتهم مركزاً وما دونهم مجرد كائنات تحوم حولهم ولا تتعدّى هامش المركز الأوروبيّ. برنشفيك في ثلاثة مسالك: تأكيد الفوارق العرقية وإلغاء المطالبة بالمساواة وتصنيف العرق الأوروبي⁽⁵⁾.

1- تأكيد الفوارق العرقية: لئن ذهب الكثير من الفلاسفة الأوروبيّين المنتصرين للعرق الأوروبيّ على غيره من الأعراق إلى تأكيد التفوّق المادّيّ الجسديّ: الطول والقوّة والجمال

وبياض البشرة⁽⁶⁾، وهي خصال لا يمتنع وجودها عند غيرهم، فإنّ برنشفيك تحيّر الاستدلال على تفوّق العرق الأوروبيّ بالخصال الذهنيّة. يقول في إحدى محاضراته الموجهة للطلبة: "... وحتى نضع الإصبع على الفرق بين المواقف الذهنيّة للأوروبيين وتلك التي لغير الأوروبيين..."⁽⁷⁾. ومثّل لذلك بحادث احتراق ثلاثة رجال ليتبين، أو بالأحرى ليبيّن الفوارق في تعليل حدث الاحتراق. وبعد أن قدّم تحليلاً للحدث، من وجهة نظر البيض وغيرهم من الأهالي. جعل المفارقة عظيمة بين من يفسّر عمليّة الاحتراق تفسيراً علمياً، والعصر عصر علم والعلم فيه تجريبيّ، وبين من يلجأ إلى التعليل الخرافيّ والأسطوريّ أو التفسير بالصدفة التي قد تكون وراء حدث الاحتراق ذاك. ولم يذكر لطلبته لا أوضاع البلدان الأوروبيّة المزرية في ما يطلقون عليه العصور الوسطى أو العصور المظلمة، تلك الأوضاع البدائيّة التي فصلت القول فيها كتبهم التاريخيّة. ثمّ خرج بخلاصة يقول فيها: "وصلت بهذه القراءة إلى الألفاظ التي تهمّنا: تناقض بين الموقفين الذهنيين. إنّهما يلخّصان، كما تعلمون، أكثر من ثلاثين سنة من الدراسات السلالية؛ إنّه في 1910 نشرت الوظائف الذهنيّة في المجتمعات الدنيا⁽⁸⁾. في تلك اللحظة كان ليفي-بروهل (Lévy-Bruhl) قد وسم الذهنيّة البدائيّة بالقبمنطقيّة⁽⁹⁾"⁽¹⁰⁾. والقبمنطقيّة لفظ مركّب من "قبل" و"منطقيّة". فالشعوب التي وسمها بروهل بالدنيا حيناً والبدائيّة حيناً آخر هي شعوب ما قبل المنطق خلّوها من التفكير المنطقيّ. وتعتبر فلسفة بروهل هذا من الروافد المرجعيّة المعرفيّة عند برنشفيك.

لم يُفش، برنشفيك لطلبته، إذن، أسرار أوروبا في عصر الظلمات. ولم يذكر لهم حال الشعوب الأخرى، العرب المسلمين على وجه التحديد الذين ارتقوا في مشارف العلوم والاكتشافات والاختراعات التي دلّ إرثهم عليها بما في ذلك الكمّ الهائل من المخطوطات التي تعجّ بها، إلى اليوم، مكتبات أوروبا ومتاحفها. ولا أحد يمكنه إنكار أصلها العربيّ لا ولا مضمونها العلميّ، فكيف باعتبارها مصدراً للعلوم التي صار يتبيّح بها الغرب كلّ حين والتي بفضلها أصبح الأوروبيون، وحدهم، المتحضّرين حسب اعتقاده وحسب تعبيره أيضاً.

2- إلغاء فكرة المساواة: حين تتأكّد الفوارق الذهنيّة بين العرق الأوروبيّ وغيره من

الأعراق تصبح فكرة المساواة بينها أمراً لا ينفيه العقل والمنطق. ويصبح حينئذ المطالب بتلك

المساواة كالمطالب بها بين البشر وغيرهم من الكائنات. وحين تلغى المساواة وتسقط المطالبة بها يُشرع للحق في الهيمنة وتُسَنّ له القوانين، وتُقرّر دعوى التمدين وتجسّد في الواقع.

إنّ الحديث عن المساواة والمطالبة بها يجرّ حتما إلى الحديث عن مستعمرات فرنسا وإشكالية تطبيق مبادئ الثورة الفرنسيّة التي يتبجّح بها فلاسفتها ومفكّروها. ها هنا يحاول برنشفيك زعزعة بعض الثوابت عند السكّان الأصليين في المستعمرات، الذين تمّت تسميتهم بالأهالي (Indigènes)⁽¹¹⁾. يقول: "يمكننا أن نفهم، إذن، أنّ الأهالي ليسوا غرباء أبداً على ربط المقدمات بالنتائج. ما يرفضونه هو أن يكتفوا بهذا الربط لتحليل النتيجة الحسنة أو السيئة. إنهم لا يأخذون بالشروط الدقيقة، الدقيقة جدّاً والخفيّة جدّاً التي تخضع لها الظواهر"⁽¹²⁾. إنّ هذا النوع من التعاطي مع الظواهر الطبيعيّة والمعانيات المعرفيّة لا يسمح للأهالي بأن يروا أنفسهم أندادا لأرباب العلم وأساطين المنطق ورواد الثورة العلميّة والصناعيّة ولا يخوّل لهم، بناء على ذلك، المطالبة بالقّ في العدل والمساواة. فهم وفق الرؤية البرنشفيكية ومن نحا نحوها ترين عليهم دونيّة متأصّلة في قدراتهم الذهنيّة التي تقف عند ظواهر الأمور ولا تنفذ إلى ما وراءها من علاقات عليّة قابلة لأن تكون مصدر اكتشافات واختراعات. ولا ينفكّ برنشفيك من الاستناد إلى بروهل والاسترفاد بآرائه والاستشهاد بأقواله. يقول: "وبالنسبة إلى الأهالي يقول ليفي-برهل، كذلك، "الشمس تشرق وتغيب والنار تحمي وتحرق، والماء يبلّل، والجسم الصلب إن ترك لذاته يسقط أرضاً ... إلخ، إنهم ينتظمون وفق هذه التجارب دون أن يجدوا فيها مادّة للتفكير"⁽¹³⁾. إنّ هذه المعانيات البديهيّة وهذه البديهيّات المسلّم بها تُوظّف للاستدلال على القصور الذهنيّ لدى الأهالي. وهو قصور يحول دون مطالبتهم بالمساواة مع الأوروبيّ الذي اغتصب أرضهم. يتحوّل هذا الضرب من النظر إلى شكل من أشكال العنصريّة والتشدد ضد أيّ عرق غير أوروبيّ. وما ذاك إلّا لتأكيد علوّ أجناس بشريّة دون غيرها وتعاليلها عليها وتقرير دونيّتها. ومن ثمّ يكون التشريع لاحتلالها وقمعها بل وإبادتها، حفظاً لنقاء العرق العالي أو السامي.

3- تصنيف العرق الأسمى: لا تنفكّ الأدبيّات الاستعماريّة عن الافتخار بالانتساب إلى أجدادهم اليونانيّين الذين تملّكوا خصالاً لم يكن لغيرهم أن يشاركهم فيها. وقد استدلّ

برنشفيك على ذلك من خلال الحفر في التاريخ الموغل في القدم ليستعرض عيّنة من انتصارات اليونان على الفرس الذي يمثلون عرقا آخر وحضارة أخرى، والذين سيكون لهم شأن وأي شأن في خدمة الحضارة الإسلامية التي تمثل الوجه الحضاري لمستعمرات فرنسا الإفريقية. يقول: "لا يجب عزو هذه الانتصارات لا إلى بسالة الفرس ولا إلى دونية في خططهم. إنّ أجساد الفيالق التي كوّنّها سيروس (Cyrus) لم يكن عندها الوقت الكافي لتتجدد بهذه الدرجة التي أخضعت آسيا، وتفصيل حروب سالامين وبلاطي⁽¹⁴⁾ لا تقيم الدليل إلا على تساوي الجهل بين الأمتين المتعاديتين"⁽¹⁵⁾. ثمّ يلجأ إلى السؤال الذي بناه على رفض التعليقات السابقة لينتصر لما يراه سببا حقيقيا لتلك الانتصارات التي وثّقها التاريخ. يقول: "ما كان سبب تلك الانتصارات، إذن؟ الاعتقاد في الشجاعة في إرادة المحافظة على الاستقلالية وحبّ الوطن مضافا إلى بسالة اليونانيين، وفضائل أرسيتيد⁽¹⁶⁾ (Aristide) وعبقريّة وعظمة روح تمستوكل⁽¹⁷⁾ (Thémistocle)..."⁽¹⁸⁾. يعلّل برنشفيك انتصارات اليونان على الفرس بفضائل كامنة في العرق اليونانيّ متجلية في ثلّة من قادته الرموز. إنّ الخصال العرقية الذهنية النفسية هي التي كانت وراء ارتقاء اليونان. من هذه الخصال الاعتقاد في الشجاعة. وهذا تمييز طريف يقوم على تجاوز قيمة الشجاعة إلى الاعتقاد في الشجاعة. والفرق، لعمرى، بينهما بيّن. ومنها، كذلك، الاعتقاد في إرادة المحافظة على الاستقلالية وحبّ الوطن. ولو شاء الناظر في هذه الخصلة أن يستخرج مستويات الدلالة فيها لألفى اقترانا بين حبّ الوطن واستقلاليته معقودا بشرط المحافظة الذي لا يتحقّق إلا متى كانت الإرادة متّجهة نحوه. وإنّ إرادة المحافظة تلك أرقى منها الاعتقاد فيها. تتجلّى صلة المرء بالوطن في تحويله حبّه له إلى عقيدة متمكّنة منه. وشتان بين حبّ الوطن وعقيدة حبّه. ومن هذه الخصال البانية للعرق النموذج ما كان مجتمعا في العرق جمعا: بسالة اليونانيين، ومنه ما كان خاصا بأرسيتيد (Aristide) المعروف بفضائله في مجاليّ الحرب والسلم، ومثله تمستوكل (Thémistocle) الذي يُشهد له بعبقرية القيادة الحربية وعظمتها. ثمّ يستخلص برنشفيك ممّا قدّمه من خصال العرق اليونانيّ الذي يعتبره هو ومن لفّ لقه، أصلا للأوروبيين، قائلا: "إنّ حبّ الاستقلال يفرز الطاقة. وإنّ تفوّق السياسة النابعة من شعب حرّ حقّا، على السياسة الفردية لنائب أريستقراطيّ، ذاك ما أهل اليونان لتلك الأجداد وإنّا مدينون له بأنوارنا"⁽¹⁹⁾.

يلجأ برنشفيك إلى التذكير بأجماع غابرة تُؤرخ بما قبل الميلاد. وهي أجماع اليونانيين غير الواقعين جغرافيًا في حيز الفرنسيين رغم أنهم يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين لهم كما تقدم. ما هذا الحفر في التاريخ الذي كان منطلقه الفصل العرقي بين أوروبي وما ليس بأوروبي؟ يقول: "لا يمكننا، في درس حول الفكر الأوروبي، ألا نثير الصفحة التي تستلهم معركة سالامين⁽²⁰⁾. إنَّ معركة سالامين واحدة من تلك المعارك النادرة في التاريخ، حيث تقررت يوما صدفه، لسلسلة طويلة من القرون، أقدار الجنس البشري"⁽²¹⁾. ولنحتفظ من هذا الشاهد المثير الذي توقف بتاريخ البشرية عند معركة سالامين هذه وزوى النظر ناحيتها ضدَّ كلِّ منجزات الحضارات الأخرى، بعدها، شرقا وغربا، بفكرة تقرير مصير البشرية وتصنيف العرق الأوروبي وتنصيبه وصيًا على الآخرين.

ما من شكٍّ في أنَّ مثل هذه التحاليل والتفاسير والتأويلات التي تفتقر إلى المرتكز الواقعي والمستند العلمي لها أثرها البالغ الأهمية في أرياب الاحتلال الذين يحولونها من مجرد أفكار وتخمينات إلى حقائق ينبغي تطبيقها لتحقيق سيادتهم على غيرهم وتغريبهم شيئا فشيئا من سلبهم هويتهم وتجزير مقومات حضارة أوروبا فيهم.

المغالطة الثانية: العلم الأرقى

بشرت كوكبة من فلاسفة عصر التنوير الأوروبي بميلاد العلم جديد على البشرية أن تدين به. من هؤلاء الفيلسوف الرياضي الألماني لايبنيز جوتفريد (Wilhelm Gottfried Leibniz) (1646-1716)، والفيلسوف الرياضي الفرنسي بوانكاري، هنري (Henri Poincaré) (1854-1912) صاحب الفرضيات العلمية وعلم البصريات. ولهذين الفيلسوفين كليهما حضورهما في مدونة برنشفيك المعتمدة ها هنا، بل تأثيرهما الجلي فيه. وقد استعرض برانشفيك في مؤلفه **العقل والدين**⁽²²⁾ ثلاث حقبة معرفية رآها ممثلة لعصر العلم سواء بالسبق والإرهاص أو التأسيس والبناء. فعرض في الفصل الرابع الفترة الأفلاطونية المرشحة للمثالية. وتناول في الفصل الخامس الفترة الأغسطونية⁽²³⁾. وخصَّص الفصل السادس للتعريف بالفترة اللايبنيزية ومحطاتها العلمية. وهي على التوالي: المثالية الألمانية والوضعية الفرنسية والنشوية الأنكلوسكسونية والتجربة. وبهذه الفترة الأخيرة يتجه الاهتمام هنا.

1- المثالية الألمانية: انبنت الفلسفة الغربية على التمييز بين المعرفة الداخلية التي محلها باطن الإنسان، العقل تحديدا، وتوسم بالعقلية أو المثالية والمعرفة الخارجية التي تشتغل في مجال الطبيعة والتي تتخذ من التجريب مسلكا معرفيا. "ويمثل النموذج العقلي (المثالي)، في الفلسفة الغربية- باعتباره أحد التحولات المعرفية لهذا الفكر- عدد من رؤاد الفكر والفلسفة. وهم على التوالي: ديكارت، كانط، هيغل..."⁽²⁴⁾. وإلى هؤلاء الثلاثة ينسب تباعا الكوجيتو الديكارتي: أنا أفكر إذن أنا موجود، فجوهر الإنسان ذاته المفكرة وتفكيره يقتضي وجود خالق له، والتعالى الكانطي: لا ينبغي تنزيه العقل عن النقد ولا الفصل بين العقل والتجربة والنسق الهيجلي: الذي بحث في العلاقات بين الثنائيات الضدية⁽²⁵⁾ مثل الظاهر والباطن والطبيعة والواجب، وأجرى الجدل بينها موحدا إيّاها بعد أن كانت مفرقة في الفلسفات السابقة له. يؤكد هذا التوجه الفلسفي المثالي قيام الفكر الأوروبي على الصراع الجدلي بين الطبيعة والمهية. وهو صراع حكم على الذات الأوروبية بأن تظلّ سجين الطبيعة والتجريب حيناً والماوراء والعقل حيناً آخر. إنه انشقاق وتصدّع سيكون له أثره في الفرق المسيحية، بل البروتستانتية. يقول برنشفيك مثنياً جهوده في رأب الصدع: "تفسّر عقيدة لاينيز إلى أيّ حدّ فكريّ، وإلى أيّ سخاء روحيّ، تتفاعل المحاولات التي ضاعفها من أجل الوصول، في النهاية، إلى مصالحة المسيحية مع ذاتها... توحيد الفرق البروتستانتية لعلّه بدا له شيئا آخر غير حلم ورع"⁽²⁶⁾.

ولنا أن تصوّر الكيفية التي سيتعاطى بها هذا النوع من الفكر المتأرجح بين الشك واليقين، القائم على الصراع الفكري: هل يمكنه أن يتقبّل مجتمعات عقيدتها التوحيد؟ وهل يكون مشروعه الغازي مستهدفا هذا التوحيد قاصدا إحداث الفوضى والترهيب والتنكيل منتظرا تداعيات ذلك كله؟

2- الوضعية الفرنسية: في إطار البحث عن علم أسمى ممّا عرف لدى السابقين ظهرت النظرة الوضعية (Positivisme). وقد ذاع فيها صيت اثنين، على الأقل، هما، أوجست كونت (Auguste Comte) (1798-1857)، وإميل دركاهم (Durkheim, Emile) (1858-1917). أقام كونت نظريته على تقسيم تاريخ الإنسانية إلى مراحل ثلاث: الخرافة

والدين والعلم الوضعي. "وهو تقسيم متهافت من جهة الفصل القطعي والتعسفي بين المفاهيم الثلاثة: الخرافة والدين والعلم، حتى لكأنّ كلاً منها قائم، بمفرده، قيام تجرّد محض... والحال أنّ تاريخ الإنسانية في مختلف مراحلها لم يكن ليخلو من العلم والمعرفة مثلاً، وإن بنسبة ضئيلة. وقس على ذلك الخرافة والدين" (27). وزاد دوركايم على كونت إقرار قيام علم الاجتماع بذاته دون صلة بالخارج. فالدين من صنع الإنسان ولا أثر للوحي فيه. يرفض دوركايم ديناً سماوياً وقيم ديناً اجتماعياً، بديلاً له. وهذا بعض ما قال برنشفيك في ذلك: "حركة التوليف والانتقائية التي تطوّرت في ألمانيا هيكل وجدت في فرنسا القرن التاسع عشر مع عمل أوقست كونت، ولكنها مترجمة في مجال، أو على أيّ حال في لغة العلم الوضعي، ومن ثمّ الإجابة على الظروف الخاصة للعلاقات بين الفكر الفرنسي والمؤسسة الدينية" (28).

ومن هنا يكون الانتصار ضدّ الديني لفائدة الطبيعي. ذلك أنّ الطبيعة هي مجال الإنسان المعرفي وهي التي توفّر له وسائله المعرفية. يعرف برنشفيك الطبيعة تعريفاً مستقياً من سبقه. فيقول: الطبيعة بالنسبة إلينا تعني كلّ شيء يلتقطه نظرنا حين يتوقّف عند أحد الأشياء التي تحيط بنا لفحص تفصيله عن قرب، أو حين يقوم ليتابع في السماء جيش النجوم الذي يملؤه على مدّ البصر. ثمّ إنّ النظر في حدّ ذاته لا يكفي. منذ ثلاثة قرون بواسطة المجاهر والمناظير، لدينا مصادر تقنية تمدّد... أفق الإدراك الحسيّ في مستوى الصغر والعظمة" (29).

ولا يخفى على ذي لبّ ما لهذا الطرح الرابط للعلم بالطبيعة المادّية والملغي لكلّ روابط روحية، من خطورة في توجيه الإنسان نحو اللادينية وفقدان الصلة بالوحي. وفي ذلك دافع تلموديّ هدام عليه تترتب عقيدة التغوّل والتألّه والاستعباد، تلك العقيدة التي ستكون علاماتها متجليّة في غطرسة الاحتلال، كلّ احتلال أوروبيّ بوجه خاصّ، فرنسيّ بوجه أخصّ. وما ممارسات حكومات الاحتلال الفرنسيّ بالبلاد الإفريقية، بالأمر البعيد.

3- النشويّة الأنكلوسكسونيّة: من مقومات العلم الأرقى الذي رفع لواءه الفكر الأوروبيّ الفلسفة النشويّة أو فلسفة النشوء والارتقاء التي جاء بها الإنكليزيّ شارل داروين (Darwin, Charles) (1809-1889). وقد نظر لها في كتابه في أصل الأنواع (30). جوهر

هذه الفلسفة هو فكرة التطور. وأما خطرهما فلا يكمن في مناقضة ما جاء في القرآن الكريم في أصل الإنسان وتكوينه⁽³¹⁾، بل إنّ الخطر الحقيقيّ ماثل في فكرة الانتقاء الطبيعيّ التي رشّحت العنصر الأوروبيّ الذي اصطفتته الطبيعة، ليكون عرقاً أسمى له حقّ السيادة على غيره سيادة تسيير وتوجيه وتمددين، سيادة احتلال واستبعاد. وقد أكّد برنشتيفيك سبق الإنقليز في هذا المضمار وإفادة فرنسا منهم. ذلك أنّ "القرن الثامن عشر بالنسبة إلى الفرنسيين هو الذي يسبق الثورة ويعدّ لها؛ وهو بالنسبة إلى الإنقليز يلحق الهزّات الثوريّة، ويوفّر نموذجاً لنظام سياسيّ متوازن بانسجام"⁽³²⁾. وليس هذا التوازن المرجوّ سوى نتيجة مباشرة لرفض التدخل الكسبيّ والمناذاة باستبعاده والتمرد عليه. هذا ما كان عندهم وما كانت له آثاره في البلاد العربيّة الإسلاميّة التي دخلوها غازين. لقد عانت بلاد المغرب الإسلاميّ الولايات منهم. لقد استهدفوا، بقصد ووعي، زعزعة الثوابت الإيمانيّة وإلغاء فكرة الوحي ليسهل عليهم التدجين والإدماج.

4- التجربة: لكن مثّلت كلّ من المثاليّة الألمانيّة والوضعيّة الفرنسيّة والنشويّة الأنقلوسكسونيّة أسساً للعلم في أوروبا، العلم الأرقى بنظرهم، فإنّ التجربة عُدتّ أساساً رابعاً ذا صلة متينة بالأسس الثلاثة السابقة. ولعلّها، أي التجربة، أن تكون ماثلة، وإن بصفة نظريّة، في كلّ تفكير علميّ. يقول برنشتيفيك: "بداية من عصر النهضة الأوروبيّة... شرع النظام الغربيّ يتّجه نحو تطوير قيم أخلاقيّة جديدة متحرّرة شيئاً فشيئاً من الدين لصالح نظريّة جديدة عن المعرفة ممثّلة في أولويّة المعرفة الموضوعيّة المستمدّة من مجالي التجريب والرياضيات..."⁽³³⁾.

ومن فضائل هذا العلم الذي يؤمن به الفكر الأوروبيّ ويدعو له، ما جاء على لسان برنشتيفيك حين قال: "نسب إلى العلم الحديث، إذن، أنّه تمكّن من بلوغ هدفه في مجال الطبيعة الجامد، ليس طبعاً أنّه ألغى الغموض مثلما قيل بتهور؛ ولكنه حلّ، أو بصفة أدقّ اكتشف، الكثير من المشاكل التي هي في وضعيّات حسّاسة حقّاً وغير متوقّعة"⁽³⁴⁾. لقد بدا هذا العلم عند برنشتيفيك متجاوزاً لجملة من مواضع الغموض والاستحالة والتعظيم المعبرّة في السابق عن قصور الإدراك الإنسانيّ وعجزه. ومن هنا كان تسمين المجاورة بين تلك الثنائيات الضدّيّة التي واجهت المعرفة في المثاليّة الألمانيّة. يقول مثمناً قدرات العلم التجريبيّ

مستمرنا بتلك الحقبة المعرفية التجريبية، معرضا بعوائقها الإستمولوجية: "وهكذا لا تتوقف التجربة والعقل، الطبيعة والفكر، عن استفزاز أحدهما الآخر والتجاوز في غير قناعة مشتركة تستحيل أداة تقدّم لا يكلّ ولا يحدّ... مشهد بديع لم يكن أكثر من ذلك أبدا إلا في هذه الفترة المعاصرة حيث من حقنا أن نحیی حقبة مباركة بامتياز في مجهود الإنسانية إزاء ذكاء الحقيقة إن كان متاحا أن نمتّع نظرا من الكارثة التي أطلقتها الحشود المتوحشة (barbares)" (35).

ويخرج برنشفيك بخلاصة يعرف فيها العلم تعريفا مغايرا لما تخلّد في الذاكرة العلمية الجماعية نافيا قصره على التقنين مؤكّدا ملكته التصورية مقررّا ترقّيه على الماورائيات: "ليس العلم مجموعة قوانين... إنه ابتكار الفكر البشري بواسطة أفكار وتصوّرات اخترعت بحرية. حيث يتهاوى الرجاء من ميتافيزيقا الطبيعة تبرز الحرية المميزة لفلسفة الفكر. درس كبير نحن مدينون فيه للتطوّر المذهل للعلم المعاصر" (36).

يقف برنشفيك موقف انبهار من قدرات العلم الحديث ومنجزاته الكائنة والممكنة. فيعلي من شأن العلم ومن ثمّ منشئه أعلامه ومدارسه ومناهجه. وهذا بين التأثير في بلاد الإسلام شرقا وغربا بالغ الأثر في بناء عقلية علمائها ومدى إدراكهم لضرورة بناء اللحظة الحضارية الفارقة، تجذرا معرفيا وتأصيلا علميا.

المغالطة الثالثة: المدنية التحقّ

يذهب برنشفيك، ومن سار سيره وانتهج نهجه من المستشرقين والمستعربين وحتى بعض المستعربين من العرب، إلى أنّ اجتماع الخاصية العرقية الراقية مع المهارة العلمية السامية من شأنه أن يولّد مدنية مغايرة ذات فريدة إذا ما قورنت بغيرها من المدنيات، أو لعلّ نظيرها مفقود بالأساس. ذلك أنّها، أي هذه المدنية الأوروبية، ذات خصائص مائزة ثلاث: إنّها مدنية متجذّرة في التاريخ، وهي ثائرة على المسلّمات ورموز السكون والجمود، ثمّ إنّها مدنية رائدة يحقّ لها أن تعلّم الآخر وتمدّنه وتحيمن عليه.

1- مدنية متجذّرة: وقد تقدّم إنماء الفكر الأوروبي إلى جذوره اليونانية. وما هو برنشفيك يحفر في التاريخ ليقرّر فكرة التجذّر المرة تلو المرة. ف "في العالم القديم، كانت

الإسكندرية مثل روما على ما هي عليه نيويورك في أيامنا هذه: مركز الإنسانية الذي لا شيء يستغرب في أن تصنع عظمة الفكر الأوروبي ونبله⁽³⁷⁾. وهذه العظمة وذاك النبل هما علامتان حضاريتان على تأصل الذوق الأوروبي إذا ما قورن بما عند غيرهم من فظاظلة وتوخش. يقول متبني رأي بوانكاري، واسما الآخر بالتوخش والهمجية، مستخلصا مزايا الفكر الأوروبي على غيره، متوسلا الشرط أسلوبا: "وليس إلّا صحيحا أن نقول بعد بوانكاري (Poincaré): "إن كان اليونانيون انتصروا على البربر (Barbares)، وإن كانت أوروبا، وريثة التفكير اليوناني، تهيمن على العالم، ذلك لأنّ المتوخشين (sauvages) كانوا يحبّون الألوان الصارخة وصوت الطبول الصاخب الذي لا يشغل إلّا حواسهم؛ بينما كان اليونانيون يحبّون الجمال الفكري الذي يخفي تحت الجمال الحسي، وأنّ هذا هو الذي يجعل الذكاء مؤكّدا وقويا"⁽³⁸⁾. إنّه نوع من التجذّر الفكري الذوقي الموروث عن الأجداد اليونان المفارق لما عند الآخرين الذين وسّمهم حيناً بالبربر وحيناً بالمتوخشين. أمّا عن سماتهم الذوقية فهي حسية يحركها سماع الصخب ومرأى اللون الصارخ شديد التوهج. وهذه السمات لا تحوّل لصاحبها ترقيا حضاريا ولا تمنحه حظا من الغلبة أو النصر.

إنّ الفكر الأوروبي مدين لليونان بالكثير. وهذه المديونية ذوقية كما تقدّم. وهي كذلك فنية وفلسفية وعلمية. يقول برنشفيك: "العدد القليل من الحقائق التي أترى منها اليونان وقتها، العلوم، نخصتهم المبنية في الفنون وفلسفتهم المستقلة، كان يمكن أن تختفي مع الحرية التي هم لها، مدينون، فقط"⁽³⁹⁾. وإذا كانت تلك مزايا اليونان على المدنية الأوروبية، فإنّ غيرها ممّا لم ينله ذاك الحظ لا ريب في أنّه خارج دائرة الحضارة أصلا. يقول برنشفيك في ما يشبه المسح الحضاري: "ضفاف المتوسط لم يكن من الممكن لها أن تحتفظ، تحت الغالبين بغير استقلال ضعيف. والعالم المنقسم بين طغاة آسيا الجنوبية وقبائل إفريقيا المتوخشين وسكّان الغرب والشمال الغلاظ، لم تعد تتوقّر على غير الجهل الوحشي والانحيازات المخزية والفنون المنحطة بسبب العبودية، أو المحدودة بفظاظلتها"⁽⁴⁰⁾. فالعالم، وفق الرؤية البرنشفكية كلّ غارق في الظلمات، يزرع تحت نير التخلف والجهل، ولا تُستثنى من ذلك إلّا أوروبا وريثة اليونان، حاملة مشعل المدنية الحق.

2- مدنيّة ثائرة: ولسائل أن يسأل: هذه المدنيّة علام ثارت؟ لقد ثارت على مختلف مظاهر الاستعباد سواء في المجال المقدّس أو المجال المدّس، سواء قي ذلك الكنسيّ أو الملكيّ أو الإقطاعيّ. يقول برنشفيك: "كانت الثورة، إذن، شاملة في المستوى الدينيّ كما في المستوى المدّس"⁽⁴¹⁾. كانت الثورة عارمة اكتست نظم التفكير ومنظومات القيم. وأيا كانت المجالات التي ستكتسحها هذه المدنيّة الثائرة متعدّدة متنوّعة، فإنّها لا تخرج من ثنائيّة الحياة العلميّة والحياة الدينيّة، كما لو كانتا على طرفيّ نقيض، كما لو كان العلم لا دين فيه والدين لا علم فيه. يعتبر برنشفيك ما حازه العصر من إنجازات آيلا إلى هذا الفصل بين العلم والدين. وهذا بعض ما قال: "علامات انتصار لا يتوقّف أحرزه التفكير المنهجيّ والمخصب على الخيال الفوريّ والساذج، تطرح بأقصى طريقة السؤال الذي يتردّد الوعي أمامه منذ القرون الثلاثة لحضارتنا: بين الحياة العلميّة والحياة الدينيّة هل ينبغي أن يكون الفصل جذريّاً؟"⁽⁴²⁾.

ويظلّ برنشفيك مستحضرا الإسلام ممثّلا في القرآن العظيم والمؤمنين به، وهو يسطّر نقاطا معيّنة في ملحمة الثورة تلك، ليمعن في انتقاد سلوك محمّد نبيّ الرحمة، ليلة الإسراء والمعراج. يقول: "هنا كلّ تحديد هو، حرفيّاً، نفي. المؤمن بالقرآن مدفوع بنفس الحبّ الذي جذب المؤمن بالإنجيل. لماذا ليلة الإسراء بمحمّد ووصوله إلى السيّد الجيد، طلب للمؤمنين من أمته فقط؟ لماذا لم يطلب كلّ العالم؟"⁽⁴³⁾. ولا يخفى علينا جهله أو تجاهله لحقيقة تلك المطالب، بل حقيقة محمّد ﷺ نفسه: أليس هو خاتم الأنبياء والمرسلين؟ أفلا يكون من المنطقيّ جدّا أن تكون طلباته للمهتدين فقط؟

ومن ملامح هذه المدنيّة الثائرة تفوّقها على ما كان يمكن أن يكون صنوا لها: الشرق. "... نجد في الشرق، مع نفس نقاط المقارنة، المصادر السريّة والعميقة التي عليها يتغذى بعض تيّارات الفكر التي قرّرت البنية الأخلاقيّة والدينيّة لأوروبا"⁽⁴⁴⁾. وهنا يستدرك برنشفيك قائلاً: ولكن من المفترض أنّ الاهتمام بالشرق لا يقرّنا من هدفنا إلّا بشكل غير مباشر للغاية. الشرق، في الواقع، لم ينظّم ذاكرته، ولم يرتّب ماضيه؛ إنّّه ما زال يعيش، في الجزء الأكبر منه، في حالة مفارقة تاريخيّة سرمدية حيث كان عصرنا الوسيط غائصا، التي

تظهرها، كذلك، الأطروحات الأشد تنوعاً أصلاً وتوجّهاً، كراهنيّة ومعقولة⁽⁴⁵⁾. ها هنا تكمن المفارقة بين الشرق والغرب. لقد تمثّلت المدنيّة الغربيّة، مدنيّة أوروبا، خلافاً للشرق، أسرار التمدّن: تنظيم الذاكرة وترتيب الماضي. وفي ذلك ثورة على الفوضى الواسعة للموروث المتخلّد في الذاكرة الجماعيّة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك ثورة على ملامح العصر الوسيط عصر الظلمات. وها هنا تكمن المغالطة التي تخفي حقيقة العصر. فما يسمّى بعصر الظلمات في تاريخ أوروبا يقابلها في حضارة الإسلام بشقيها الشرقي والغربي الأندلسي وما بينهما. وقد شهد بذلك القاضي قبل الداني.

3- مدنيّة رائدة: وقد تجلّت الريادة في القدرة على التخطيط واستحضار الشرق مجالا لتنفيذ الريادة. ولا خلاف في أنّ الريادة لا تكون إلّا لمن تجاوز الدوران على الذات وتمكّن من تسريح الفكر في المطالب الجماعيّة. وها هنا تبتدئ القدرة على التخطيط في الشكّل. لقد تنبّه لاينيز، فيلسوف القرن 17، إلى وجوب الكفّ عن الصراع الأوروبي الداخلي والتوجّه إلى الخارج. واقترح تقسيما للعالم الخارجي ستطبقه، بعد زمن، حملات الغزو والاحتلال. إنّ برنشفيك بإحيائه لفلسفة لاينيز هذه يؤكّد حقّ أوروبا في ريادة العالم وفي تعريفه به تذكير بوجوب الاعتراف بفضله بل وجوب التعرّف على طريقته في التفكير ومنهجه في التعاطي مع الآخر. يقول: "جاء باريس بصفة مستشار في المجلس الأعلى لهيئة الانتخاب في ميانس (Mayence). وكان حاملا مخطّطا. كان ينوي تسليمه إلى لوي XIV ليدفعه إلى مهاجمة الترك بغزو مصر... (ولكنّه) حوّل شهيدته إلى النصر، إلى أعداء الحضارة المسيحيّة..."⁽⁴⁶⁾. إنّ فكر خطير يحوّل الضعف إلى قوّة والفوضى إلى نظام والانشقاق إلى لحمية والتفرّق إلى اتّحاد. وهذا ما انتهت إليه بنات أفكار لاينيز. وهذا تماما ما سيشهده العالم قرن ونيف. يقول برنشفيك: "ستكفّ أوروبا عن تتأمر على نفسها: السويد وبولونيا بدلا من أن تمزّق الواحدة الأخرى تدخلان سيبيريا... أمّا أنقلترا والدنمارك فتحتلان أمريكا الشماليّة. وأمّا إسبانيا وأمريكا الجنوبيّة. وأمّا هولندا فالهند الشرقيّة. وأمّا فرنسا فتهاجم على إفريقيا الواقعة قبالتها، وعلى مصر"⁽⁴⁷⁾.

ومّا استخلصه برنشفيك بشأن هذا الفكر الباني لهذه المدنيّة الرائدة هو أنّ "الفكر الأوروبي فكر لا يرتاح أبدا. فتاريخه تكوّن من سلسلة أزمات؛ وكلّ واحدة من هذه الأزمات

علّمنا التصحيح دون توقّف، وتنقية فكرتنا حول المعرفة⁽⁴⁸⁾. يدرج برنشفيك قوله هذا في كتاب هو في أصله مجموعة مقالات نشرت في مجلّات متنوّعة على فترات متباعدة أغلبها في الثلث الأوّل من القرن العشرين. معنى ذلك أنّه مسكون بهذا الهاجس هاجس ريادة الفكر الأوروبي الذي ينبغي أن يقود العالم والذي عنه انبثقت المدنيّة الأوروبيّة.

صدّر برنشفيك كتابه إنسانيّة الغرب: ديكارت - سبينوزا - كانط⁽⁴⁹⁾، بمقدّمة وسمّها بإنسانيّة الغرب⁽⁵⁰⁾، جاء في مستهلّها توصيف لما عليه الشرق في حقيقته وما عرفه منه الغرب. وقد أكّد البون الشاسع بينهما. ومن المهمّ أن نتنبّه إلى أنّ وجهة هذه المدنيّة الأوروبيّة الرائدة هي الشرق. ذلك أنّ "الشرق، عن بعد، شيء ما. وهو من قرب أشياء كثيرة، بعضها عرفه الغرب، والبعض الآخر الذي لا يعرفه، يبعد أن يكون قد وعى بها قطّ. وهكذا الأطروحة النقيضة الشرق-الغرب هل لها فرصة توفير موضوع لأفكار مفيدة إن بدأنا باعتبارها في المصطلحات التي بها كانت مقترحة على أوروبا، على مدى، إن شئنا القول، الحدود التاريخيّة"⁽⁵¹⁾. نحتفظ من هذا الشاهد بثلاث نقاط. تتمثّل الأولى في قصور معرفة الغرب للشرق من جهة الكمّ والوعي. وتتمثّل الثانية في تحويل الأطروحة من غرب-شرق إلى شرق-غرب. وأمّا النقطة الثالثة فمدارها على المشغل الاصطلاحيّ الذي متى تغيّر تغيّرت زوايا النظر ومن ثمّ المواقف.

إنّ ريادة أوروبا الحضاريّة ليست مدينة فيها لغير الحضارة اليونانيّة كما تقدّم. ف"حضارة الغرب برزت في التاريخ بعلم حساب بتاغور وبمنهج سقراط التوليدي"⁽⁵²⁾. يجيد برنشفيك القفز التاريخيّ فهو يدرس مسائله مستندا إلى التاريخ فإذا وصل عند منعرج الحضارة تراه يقفز إلى عصر الأنوار دون ذكر لما كان من أدوار معرفيّة كشفيّة تصحيحيّة ابتكاريّة.

وأما الرجل الغربيّ الذي هو صانع هذه المدنيّة الرائدة فقد جاء تعريفه في الملحق الثاني الموسوم بدور الرجل الغربيّ. إنّه يعرّف الرجل الغربيّ انطلاقا من مفهوم كلّ من سقراط وديكارت فيقول: "الرجل الغربيّ، الرجل حسب سقراط وديكارت، الذي لم ينتجته الغرب مطلقا، إلّا بعض النماذج النادرة، هو الذي يلفّ الإنسانيّة في المثاليّ من تفكيره العقليّ ووحدة الأخلاق. لا شيء مأمول عنده إلّا معرفة الشرق، كلّ الشرق مع تنوّع حقه

وحضاراته، الذي، تقريبا، لا ينتهي⁽⁵³⁾. هذا التعريف يبرهن على اقتدار برنشفيك على المراوغة والقفز التاريخي. إنه يجيد هذا الضرب من القفز لأنّ رجله الغربيّ صنيعة سقراط وديكارت فقط. وقد اجتمعت فيه الجذور الفلسفيّة اليونانيّة والأصول العقليّة المثاليّة. ويخرج بالنتيجة التالية، وهي الأولى، عنده، وهي التي تهمّنا هنا. يقول: "النتيجة الأولى لهذه المعرفة ستمثّل، دون شكّ، في تأمل أحكام الشرق حول فوضى حضارتنا ونفاقها، وفي وعي مهين ولكنّه شافٍ، بالمسافة التي، في حياتنا العامّة كما في سلوكنا الخاصّ، تفصل مبادئنا عن أفعالنا. وفي الآن ذاته، سيفهم الغرب أفضل تاريخه الخاصّ"⁽⁵⁴⁾. الأسلوب المراوغ ذاته يتوخّاه هنا. فبينما يفهم المتلقّي أنّ الكاتب يؤشّر على مواضع الخلل في مدنيّة أوروبا. وهي تتعلّق بالفوضى والنفاق ومخالفة الأفكار للسلوك والأقوال للأفعال، تتّجه قصديّة الكاتب جهة التعرّف على المداخل الممكنة إلى الشرق وما يمثّله من حضارة ممتدّة مشرقا ومغربا. فما يعيبه الشرق على الغرب هو الذي ينبغي أن يزرع في الشرق لتكون عمليّة تفكيكه مستقبلا. يبدو هذا النوع من الخطاب المراوغ، في ظاهره، كاشفا لنقاط الضعف الذاتي. غير أنّه في باطنه يؤشّر على مجال الريادة الناجعة. فليس أمام الغرب سوى الشرق، ليتوجّس خيفة من تمرّده عليه ولينازعه المشهد الحضاريّ، أيضا.

خاتمة: وفيها خلاصات واستنتاجات وتوصيات

1- خلاصات ثلاث

أ- اهتّم ليون برنشفيك بالمسألة الحضاريّة الأوروبيّة وسعى إلى تجذيرها وتأصيلها من خلال جملة من الرّؤى أكّد النظر في خطابه أنّها مجرد مغالطات لا تستقيم منطقا ولا عقلا بل تفنّدها الاكتشافات العلميّة.

ب- هذه المغالطات الثلاث: العرق الأسمى، والعلم الأرقى، والمدنيّة الحقّ ذات جذور يونانيّة بداية، وأوروبيّة نهاية. فلا فضل لغير هذين الرافدين في وجودها. وفي ذلك خدعة معرفيّة لا تنطلي إلّا على جاهل.

ج- تنوّعت روافد برنشفيك الفلسفيّة لصياغة هذه المغالطات التي تستحضر الآخر دون أن تسمّيه. غير أنّ برنشفيك ذكر، في مرّات قليلة، القرآن الكريم والنبيّ محمد ﷺ وما يدور في فلكهما، باعتبارهما الخصم الحضاريّ.

2- استنتاجات ثلاثة

أ- تستهدف المغالطات الحضارية، على المدى البعيد، بناء سرديات كبرى من شأنها أن ترسخ تلك الأفكار الفردية في الذاكرة الإنسانية التي تتسطح شيئا فشيئا. وهذا بعض مما ترمي إلى العوالة اليوم.

ب- إن ادعاء التفوق العرقي العلمي الحضاري يسفر عن التعصب المقيت والكرهية البغيضة ويؤدي، تباعا، إلى الإقصاء فالإلغاء فالإفناء. وهذا يفسر بعض ما يشهده العالم اليوم من تطرف وإرهاب.

ج- هذه المغالطات يمثل درجات متفاوتة من الخطورة غير أنه يكشف عن طبيعة العداء الذي يمثله أرباب الاحتلال وأذناؤه. ومن ثم تكون هذه المغالطات محركا فعّالا لقيام جبهات وطنية ذات فداة.

3- توصيات ثلاث

أ- ضرورة التنبيه لهذه الضروب من الكتابات الفلسفية الغربية والوقوف ضد محاولات تسريبها سواء في الدروس الجامعية أو الأعمال البحثية أو الترجمة أو الإبداعية.

ب- تكثيف الاشتغال في النموذج الحضاري البديل وتنويع مجالات العمل فيه من خلال المراجعات المتعلقة بالموروث حفظا وتعريفا، والشراكات العلمية والمشاريع السياحية.

ج- توجيه عناية البحث العلمي الأكاديمي وجهة هذا النوع من الخطاب المغالطي قصد كشف خدعه وتصوّراته الواهمة ومفاهيمه الزائفة ومعرفة الخصم الحضاري حق المعرفة.

الهوامش والإحالات

(1) - وأهم كتاباته التي اشتغلنا فيها:

(1) *La physique du vingtième siècle et la philosophie* (1936),

(2) *L'esprit européen* (1947),

(3) *Héritage de mots, héritage d'idées* (1950),

(4) *L'humanisme de l'occident Descartes-Spinoza-Kant* (1951),

(5) *La raison et la religion* (1964).

(2) - مصطفى، عادل، **المغالطات المنطقية: فصول في المنطق غير الصوري**، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، 2019، ط15، ص17.

(3) - لمزيد من التفاصيل حول اهتماماته ومهامه انظر:

Charle Christophe. **Les professeurs de la faculté des lettres de Paris Dictionnaire biographique 1909-1939**, Paris : Institut national de recherche pédagogique, 1986, pp. 44-45.

(4) - Brunschvicg, Léon, **L'esprit européen**, Edition de la Baconnière, Neuchatel-Suisse, 1947.

(5) - وسيتجلى هذا في الفكر النازي الذي يعدّ توجهها إيديولوجيًا شموليًا مبنيا على فكرة التراتب العرقي التي تضع، في قمة الهرم، العرق الآري الجرمان.

(6) - وقد قال بول لابي (Lapie, Paul) (1869-1927)، أستاذ الفلسفة بمعهد كارنو بتونس لبرنشفيك: "كلّ عربيّ تكون بشرته برنزية والشعر داكنا والعين سوداء والأنف أفنى". انظر:

Lapie, Paul, **Les civilisations tunisiennes: musulmans, israélites, européens: étude de psychologie sociale**, Félix Alcan, éditeur, Paris, Boulevard Saint-Germain, 108, 1898, p. 4.

وانظر كذلك: قرفال، نجاة، **خطاب الاستعراب في تونس زمن الحماية: الخصائص والخلفيات** جمع الأطرش، تونس، 2020، صص 63 و 314 و 383 و 494، مثلا.

(7) - Brunschvicg, **L'esprit européen**, op. cit, p. 9.

(8) - **Les Fonctions Mentales dans les Sociétés Inférieures.**

(9) - (prélogique). انظر: المورد، ص 962.

(10) - Brunschvicg, **L'esprit européen**, op. cit, p. 10.

(11) - رغم أنّ هذه الكلمة لها بدائل أخرى كثيرة نرى المستعربين الفرنسيين ومن سلك مسلكهم يصرون على استعمالها. انظر مثلا:

<http://www.synonymo.fr/synonyme/indig%C3%A8ne> (Synonymes de indigène: aborigène / allogène / autochtone / demeurant / local / natif / naturel / originaire / gens du pays)

(12) - Brunschvicg, **L'esprit européen**, op. cit, p. 11.

(13) - Idem.

(14) - (Platée) حرب برّية وقعت في أوت 479 ق. م. انتصر فيها اليونان على الفرس.

(15) - Brunschvicg, **L'esprit européen**, op. cit, p. 117.

(16) - قديس أثينيّ معروف بفضائله المدنية والحرية.

(17) - رجل دولة أثينيّ حقّق انتصارات حربية (ت 459 ق. م.)

(18) - Brunschvicg, **L'esprit européen**, op. cit, p. 117.

(19) - Idem.

(20) - (Salamine): معركة بحرية وقعت في مضيق سلامين قرب أثينا، انتصر فيها التحالف اليوناني (380 مركبا) على الإمبراطورية الفارسية (800 مركب) رغم تفاوت العدد. كان ذلك سنة 480 ق.م.

(21) - Brunschvicg, *L'esprit européen*, op. cit, p. 116-117

(22) - *La raison et la religion*

(23) - نسبة إلى القديس أغسطينوس المتأثر بالأفلاطونية الحديثة.

(24) - بوغازي، بشير، *فلسفة عصر التنوير*، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان- الأردن 1437هـ-2016م، ط1، ص103.

(25) - ولنا أن نلاحظ أن عناوين كتابات برنشفيك نفسه تغلب عليها فكرة الشائيات الضدية. وذاك من تداعيات ذاك الفكر وعلامات تأثير السابق في اللاحق.

(26) - Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 117.

(27) - انظر لمزيد التوسع في الفلسفات المغذية للفكر الغربي وأثرها في بناء تصوراتهم حول غيرهم: قرفال نجا، منزلة الإنسان في الفكر الغربي الاستعرابي: بول لابي (Lapie, Paul) نموذجاً، مجلة المشكاة العدد 17، 2019، صص 297-301.

(28) - Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 140.

(29) - Brunschvicg, Léon, *La physique du vingtième siècle et la philosophie*, Librairie scientifique : Hermann et C^{ie}, Paris, 1936, p. 4.

(30) - Darwin, Charles, *De l'origine des espèces*, 1859.

(31) - فقد فتدت الاكتشافات العلمية تلك النظرية ودحضت فرضيتها.

(32) - Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 167.

(33) - مرشو، غريغوار منصور، مقدمات الاستيعاب: الشرق موجود بغيره لا بداته، دار نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (18)، هيرندن-فيرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية 1416هـ/ 1996، ط1، ص18.

(34) - Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 61.

(35) - Brunschvicg, Léon, *Héritage de mots, héritage d'idées*, Presses Universitaires de France, Paris, 1950., p. 27.

(36) - Brunschvicg, *Héritage de mots*, op. cit, p. 32.

(37) - Brunschvicg, *L'esprit européen*, op. cit, p. 8.

(38) - Brunschvicg, Léon, *La physique du vingtième siècle et la philosophie*, Librairie scientifique : Hermann et C^{ie}, Paris, 1936, p. 28.

(39) - Brunschvicg, Léon, *L'esprit européen*, Edition de la Baconnière, Neuchatel-Suisse, 1947, pp. 116-117

(40) - Brunschvicg, Léon, *L'esprit européen*, op. cit, pp. 116-117

(41) - Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 39.

(42) - Ibid, p. 41.

(43) - Brunschvicg, *Héritage de mots*, op. cit, p. 60.

(44) - Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 62.

(45)- Brunschvicg, *La raison et la religion*, op. cit, p. 62.

(46)- Brunschvicg, *L'esprit européen*, op. cit, p. 121.

(47)- Idem.

(48)- Ibid, p. 183.

(49)- Brunschvicg, Léon. *L'humanisme de l'occident Descartes-Spinoza-Kant*, écrits philosophiques, T1, Paris, Presse Universitaire de la France, 1951, p.1.

(50)- وقد جاء تنصيب في الهامش على أنّها محاضرة أُلقيت في شتاء 1926-1927، أي بُعيد سقوط الخلافة العثمانية، وأنّها نشرت عام 1928. هذا التدقيق الزمني مهم لأنّ الكتاب الذي ستظهر فيه نشر عام 1951، الفترة التي قويت فيها نضالات الشعوب ضدّ الاحتلال. فالوضع العالمي الأوروبي والعربي، تحديداً، مختلف بين الربع الأول للقرن العشرين ونصفه الأول.

(51)- Brunschvicg, *L'humanisme de l'occident*, op. cit, p. 1.

(52)- Idem.

(53)- Ibid p. 304.

(54)- Idem.